الطبيعة الجامدة في الموشحات الاندلسية

م.م. ساهرة عليوي حسين

The Concept of Nature in The Lyrical Poetry of Andalusia

Asst. Lect. Sahira Elewee Hussain
Sahera.Oliwe@uokerbalaedu.iq

Abstract

The poetry of Andalusia is distinguished by describing nature which was the muse of the poets because nature is related to human soul. It was not just a space but it was a psychological state and it presented how the poet felt of that nature.

الخلاصة:

للطبيعة الأندلسية حضورا متميزا في الموشحات وهذا يتفق مع الرأي القائل يتميز الشعر الأندلسي بوصف الطبيعة بكل مظاهرها وبحب الأندلسي لطبيعته ومن ثم ما للشعر من اثر بارز في ترجمة هذا الحب الى واقع معاش. فقد كانت هذه الطبيعة بحق ملهمة الشعراء، ومدار اهتمامهم في رسم صوره والمعبرة عن اشجانهم وافراحهم وتشاركهم كذلك احزانهم فهي تمثل العالم المغلق/المفتوح والضيق الواسع)) وهما يمثلان صفة الانغلاق والانفتاح للـ(الفضاء المكاني) الذي يرتبط بشكل مباشر بالذات الإنسانية وشعورها اتجاهه –اي– المكان. لأنه ليس مساحة حسب، بل هو حالة نفسية كذلك، فسمة المكان وتحديد هويته يتم من قبل فعالية الذات المتوزعة ما بين الانغلاق على نفسها او الانفتاح نحو الخارج (الموضوع).

إضاءة:

لقد نظر شعراء الأندلس للمكان وخاصته الطبيعية الصامتة الى انها حية تشاطرهم الحياة وامتزجت أشعار الطبيعة بشعر الحب وقد قال المقري عن شعراء الأندلس ((انهم اذا تغزلوا صاغوا من الورد خدودا ومن النرجس عيونا ومن الآس أصداغا ومن السفرجل نهودا ومن قصب السكر قدودا ومن قلوب اللوز وسرر التفاح مباسم ومن ابنة العنب رضابا))[1] وهذا يشير الى ان شعراء الأندلس يقصدون الى المكان قصدا ويكثرون من وصف الطبيعة الخلاب من رياض وانهار وازهار ومجالس خمر وسمار هذا بالإضافة الى غرض الغزل الذي امتزج بفن وصف الطبيعة.

الطبيعة الجامدة

إن الفعاليات التي تحدث في المكان المرتبط بالسعادة والأمل والاطمئنان والفرح تشير الى المكان المفتوح الواسع في حين ان الأحداث المرتبطة بالقلق والحزن والخوف تشير الى المكان المغلق الضيق والمحرك بينهما ثنائية ((الداخل/الخارج)) التي تشكل الإطار العام لكل الثنائيات التوافقية وغير التوافقية وفقا للحالة النفسية التي تعيشها الذات الإنسانية..

إن النص الشعري لا يبدأ في العزلة بل في نطاق من العلاقات حيث يتم نظمها من خلال العلاقة بين الإنسان والعالم[2]، وتتضح صفة الذات ما بين اتصالها اي انفتاحها نحو الخارج وانغلاقها لتؤكد هويتها، وينبع هذا من الشعور إزاء المكان وبيئته فهو قمة التعبير عن الذات[3] لأن هذا يجسد انفتاح رؤية الشاعر على الحياة والناس وبما ان الرؤيا واقعا يجب ان تشمل حتى ما حول النص من رسم كتابي اختاره الشاعر ليكون جزءا مكملا للرؤيا الشعرية في القصيدة، وبهذا تكون الرؤيا قد تجاوزت المفهوم التقليدي من الدلالي الى الشكلي ومن رؤيا حلمية الى المفهوم الإنساني والفكري والانفعالي.

قال ابن زهر* :[4]

(1) نفح الطيب : 323/1
(2) جماليات المكان، باشلار، 245
(3) ينظر: الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، 15
(1) ديوان الموشحات الاندلسية، تحقيق الدكتور سيد غازي، الناشر منشأة المعارف، الاسكندرية، 1979، 65/2.
*جيش التوشيح، لسان الدين ابن الخطيب، 138.

حَسْبُ الخليعِ مَلجا روضٌ على غديْر(*)
وقهوةٌ مُدرارةٌ أنفاسُها عبيرْ
صفراءُ وبنتُ دَن بالنورِ تطلعُ
ينشقُ كُل دَجن عنها ويصدعُ
إبريقُها يُغني والكأسُ يسمعُ
ولاتزال ترجى للحادثِ النكيرْ
للهمِ إن اثارهْ بين الحشا مثيرْ

وظف الشاعر الطبيعة المائية (روض على غدير) لتعبر عن العالم المفتوح الذي يعيشه لحظة في اللحظة الآنية والتي تجسد الرؤى القائمة بين العقل واللغة لترسم صور ثنائية (المغلق المفتوح) من خلال ما يأتي:

1- الروض على غدير

صورة فنية ابداعية تعبر عن تأملاته الشخصية من خلال عالم مفتوح يضم الأرض الواسعة والخضرة الدائمة وألوان الزهور وكل ما يمت للجمال بصلة..

فالروض هنا بارز باسم بماء الغدير العذب قد تملك على الشاعر سمعه

وقلبه واثار فيه احساسه بكل شيء جميل فاتسع المكان لوصف الخمرة في احضان الطبيعة، واعتمد ابن زهر على البنية السردية في هذا النص ليجسد المكان المفتوح الذي اتضحت فيه وحدة الموضوع و(الشاعر كلما ازداد نضجا ازدادت قدرته على الخروج من اطار مشاعره الذاتية الى الاطار الموضوعي)[1] من خلال الوصف الدقيق للعالم المحيط.

2-وصف الخمرة في احضان الطبيعة

وصف الخمر في الشعر الأندلسي من مظاهر الحياة المترفة والتي تجسد العالم (المفتوح/المغلق) عالم (السمو/ والهبوط) فقد تكون الخمرة مظهر من مظاهر الحياة المترفة ومن دلائل المروءة والشهامة والنبل لدى الرجال ومن اسباب العزة والفتوة لدى القبيلة[2].

ولم يكن الشعر الأندلسي بعيدا عن مفاهيم المشرق في شرب الخمر وقد ساعد جمال الطبيعة على التفن في رسم صورها وتعدد الوانها. وقد ابدع ابن زهر في رسم العالم المفتوح من خلال المزج الفني بين الروض على الغدير وتدفق الخمرة من الدن الضيق ليشع في الابريق الذي البسه صفة الغناء.

وكانت للعين نصيب من تشوقها اجمل عند بعض الشعراء من نصيب السكر عند الشاربين[3] وشارب الخمر يطرب للونها ورقتها في الكأس فالإبريق يغني والكأس يسمع صورة فنية معبرة عن ذات تعيش في فضاءٍ مفتوح نقلها الشاعر في استهلال نصه الفني ليخفي معاناة الذات التي تخشى ان يظهر الهم بفعل فاعل وتتمنى انين لا يتحرك بين الحشا وهنا تظهر ثنائية (الساكن/المتحرك) في اطار ثنائية (المغلق/المفتوح) لتؤكد الحدث ان الهم ساكن بين الحشا فيسترسل في قوله[4]:

هل للكئوسِ راحةٌ لذي بلابلِ
يا واحدَ الملاحةْ بَعد ابنِ راحلِ
هذى النوَى مباحة فاحفظْ وسائلي
ما للكئيبِ منجَى إن بات في سعيرْ
قلبٌ يشبُ نارهْ في ادمعٍ نفورْ

(1) الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين اسماعيل، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط3، 1981، ص218.
(2) القيم الجمالية في شعر الاخطل. د. هناء جواد عبد السادة (رسالة ماجستير) جامعة بغداد، كلية التربية، 1990، ص122.
(3) ينظر: ثقافة الناقد الادبي. د. محمد النوبهي، بيروت، ط2، 1969، ص21.
(4) ديوان الموشحات الاندلسية، : 2/65-66.

يدخل الشاعر هنا في دائرة المغلق وتتوحد ذاته مع الموضوع من خلال الاستفهام (هل للكؤوس راحة؟) الذي يشير الى القلق وعدم الراحة فالذات تتحدث عن الروض الجميل والخمرة الصفراء بأبريقها الأنيق من الخارج لإضاءة الموضوع ويبدأ العرض الثاني من الداخل بعدما تحرك الساكن في الحشا وتضيق الدائرة لدرجة الاختناق ويصبح المكان مغلق بهمومه واحزانه المنبثقة من الداخل لتضفي على الروض حزنا وألما.

إن الفضاء المفتوح يمثل مكان الألفة والمحبة المكان الجاذب التي ينماز بالدفيء والرحمة[1].

قال ابن عيسى[2]

عرفُ الروضِ فاح * والطيرُ قد غنى

والصبحُ اضا * فبا كرِ الدَنا

خذها كالرجا في عقيبِ الياسِ

اذا صبَها الإبريقُ في الكاسِ

مُشعشعة تضِيء للناسِ

كالنجمِ ألاح * في افقه وَهْنا

هوَى فقضى * أن يخطِف الجِنَا

يتحرك النص في اطار الطبيعة مكانا في دائرة (المغلق والمفتوح) (المضيء والمعتم) (العالي والمنخفض) اذ ركز الشاعر على رائحة الروض الفواحة وصوت الطير اذا غنى في الرياض وقت طلوع الفجر صورة فنية في سياق فني ابداعي، إذ تتضح اهمية الصورة الفنية في الشعر من الاهتمام المبكر فالشعر يقوم على الصورة وقد تتغير المعايير وتختلف البيئات وتتوالى الأزمنة، وتتنوع مواد الشعر وتتعدد استخداماته ولكن تبقى الصورة وسيلة التعبير فيه، فهي اداته الأولى التي تميز عصرا عن اخر وشاعرا عن غيره[3].

في النص ثمة علاقة واضحة بين صورة الروض الجميل الذي يجسد المكان المفتوح وبين الذات التي تعاني اليأس (المكان المغلق) وتتوسط بينهما الخمرة (خذها كالرجا في عقب اليأس).

فحركة الانفتاح والانغلاق تعتمد على شرب الخمرة التي استعرض ابن عيسى اوصافها (مشعشعة، مضيئة، كالأنجم...) وعبر هذا المشهد البصري يتراءى لنا وجه الوضوح ضمن أطار ثنائية (المضيء/المعتم).

ان النص يحمل دلالة (الأمل/اليأس) ثنائية ضدية تكشف صراع الذات وسط دائرة المفتوح، المغلق إذ يجسد الأمل الجهة النفسية وهي حالة عاطفية سارة ترتبط بالتمسك من جانب المرء بالرجاء والوصول الى غرض ناجح او هدف او اشباع رغبة[4] اما اليأس فهو نقيض الرجاء ويمثل العالم المغلق وتصبح الذات الإنسانية ذات انطوائية تعيش العزلة والغربة.. وهناك حقيقة سيكولوجية تقول بأن الحياة تأثر واستجابة، لكن من المؤكد ان الدلالة النفسية للذات اليائسة هي واحدة لدى كل الناس لأن اليأس اصبح لديهم شعورا بالخسران[5]

فعندما نتحدث عن الأمل الذي جسد الجانب المضيء في النص من خلال الصور المشعة انما نتحدث عن التئام الذات بالآخر _المكان_ وعندما يدب اليأس للذات وينقطع الرجا فإن الانفصال عن الآخر يصبح واضح المعالم.

(1) تداعيات الذات في شعر ابن زيدون د.هناء جواد، مجلة جامعة بابل، مج9، ع1، تموز/2004
(2) ديوان الموشحات الاندلسية : 2/158- 159
(3) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، القاهرة (د.ت) ص35.
(4) ينظر: موسوعة علم النفس د. سعد رزق، مراجعة د. عبدالله عبد الدايم، مطبعة الشرق، بيروت، ط1، 1977، ص33
(5) ن.م. والصفحة
(6) الديوان : 1/62-63

مصادر البحث

- الادب الاندلسي موضوعاته وفنونه، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين، 1975.
- التجديد في الادب الاندلسي، باقر سماكة، 1971.
- تداعيات الذات في شعر ابن زيدون، هناء جواد، مجلة جامعة بابل، مج 9، 14.
- ثقافة الناقد الادبي، د. محمد النويهي، بيروت، ط2، 1969.
- جماليات المكان، جاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، دار الجاحظ للنشر، بغداد، ط1، 1980.
- جيش التوشيح، لسان الدين ابن الخطيب(776هـ) حققه هلال ناجي ومحمد ماضور، منشورات مطبعة المنار– تونس.
- ديوان الموشحات الاندلسية، تحقيق الدكتورسيدغازي، الناشر منشأة المعارف، الاسكندرية، ج2، 1979.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين اسماعيل، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط3، 1981.
- الشعر والتجربة، ارشيبالد مكليش، ترجمة: سلما الخضراء، دار اليقظة، بيروت، 1963.
- الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، جابر عصفور، القاهرة(د.ت).
- الفضاء الشعري عند السياب (اطروحة دكتوراه)، لطيف محمد حسن، كلية الاداب، جامعة الموصل، 1994.
- القيم الجمالية في شعر الاخطل، د. هناء جواد عبد السادة، جامعة بغداد، كلية التربية، 1990.
- المضامين التراثية في الشعر الاندلسي في عهد المرابطين والموحدين، د. جمعة حسين يوسف الجبوري، مؤسسة دار الصادق الثقافية، عمان.
- ملامح الشعر الاندلسي، عمر الدقاق، دار الشرق العربي، 2006.